المستقبل فعل كسبي

إن العصمة من الانزلاقات المختلفة تكمن في أن يوقن العاملون للإسلام وأنصارهم أن التدافع بين البشر سنة من سنن الله الثابتة ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾[1]، ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾[2]، حتى لا تموت الحياة ولا تتوقف وحتى تظل نابضة بالحركة والتبدل، فتعارض المصالح واختلاف الاتجاهات والتصورات والرغبة الكامنة في أعماق فطرة الإنسان في اكتشاف الجديد وتحقيق المزيد من الانتصارات، هي التي تكمن وراء التدافع البشري وتقود إلى العمل والإبداع وإلى التنمية والبناء.

وأن المستقبل فعل كسبي وهو يعطى لمن يملك شرطه فمن نجح في اكتشاف ما يوجد من ذخائر في الأرض، وأحسن توظيفها وتفهم طبيعة البشر وأتقن التعامل معها، ومن نجح في تحريك ما سخر الله للإنسان في ذاته وفي الكون من حوله ووفق في كسب ثقة الناس في رجاله ومنهجه وبرامجه وجعلهم يتفاعلون إيجابا مع كل ذلك وصل إلى مراده كائنا من كان، قال تعالى﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾[3] ﴿مَن كَانَ

---

(١) محمد الآية:٤ .
(٢) البقرة الآية:٢٥١.
(٣) الإسراء الآية ٢٠.

يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾[١]، إلا أن المسلم العارف بدينه والعامل به أولى بالنجاح من غيره إذا كان تدينه صحيحا وعمله متقنا لأن عاقبة الأمر تكون بالضرورة لأهل الصلاح والتقى، فالعاملون في الحقل الإسلامي إذا كانوا خيرين مهتدين بهدى الله سبحانه متجردين من مطامعهم غير المشروعة، يعرفون الحق الذي بينه الله سبحانه ويعرفون الطريق إليه فيتخذون الأسباب التي تتطلبها أنظمة الكون المعتادة ويفرضها التدافع البشري المعهود- والمتعارف عليه اليوم باسم المعارضة السياسية الرسمية والعلنية - أو تقضي بها التكاليف الشرعية التكليفية والوضعية، وأيقنوا صدقا بأنه لا نجاة لهم من عذاب الله إلا أن ينهضوا بدورهم في الإصلاح والبناء ويتدافعوا مع غيرهم على مقاليد الحكم والتسيير، و يتحملوا في سبيل ذلك كل عنت وتعب ومحن وابتلاءات بنفوس راضية وصابرة ومحتسبة موقنين بالنصر في الدنيا والفلاح في الآخرة، فإنهم يصلون إلى أهدافهم بإذن الله؛ لأن الله كتب على نفسه أنه تعالى ينصر من ينصره ويجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا، فحصيلة الصراع والتنافس والتدافع في يد القوة الصالحة الخيرة؛ قال تعالى: ﴿**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾[٢]، ﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ**﴾ [٣]،

(١) هود الآية ١٥ .
(٢) الحج الآية ٤٠.
(٣) غافر الآية ٥١.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[1].

وبعبارة أشمل وأوضح أقول؛ إن الناس في موضوع التدافع والصراع على السلطة ثلاثة أقسام؛ قسم أحسن اتخاذ الأسباب التي دلت عليها سنن الله تعالى في الخلق والاجتماع؛ عرف طباع الناس وواقعهم السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي وأحاط علما بقوانين الحكم وسياساته المختلفة وبحقيقة الكتل الموجودة داخل السلطة وخارجها، وأدرك طبيعة موازين القوى داخل البلد سواء كانت في الحكم أو في المعارضة وخارج البلد على المستويات الإقليمية والقارية والعالمية، وسهر على توفير الأسباب الداخلية والخارجية، وأحسن اختيار الوسائل اللازمة والمناسبة لتحقيق أهداف سيره في مختلف مراحل مسعاه نحو النصر والتمكين حقق الله له من النتائج ما تعطي تلك الأسباب في نظامها التكويني ولوكان عاصيا لله سبحانه في أحكامه الشرعية؛ تكليفية كانت أو وضعية، أو كان كافرا بالله سبحانه غير مؤمن برسالة محمد ﷺ، وهذه المسألة من الحقائق التي دلت عليها أحداث التاريخ وشهادات الواقع ولا ينكرها إلا جاهل أو جاحد وهي المرادة بمثل قوله تعالى ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾[2]،

(١) الصافات الآية ١٧١-١٧٢.
(١) آل عمران الآية ١٤٥ .

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾(١).

وقسم فعل ما فعله القسم الأول فاتخذ جميع الأسباب الممكنة والمقدورة وأضاف إليها إيمانه بالله ورسوله والتزامه بالأحكام الشرعية التكليفية والوضعية فهذا ينال من عطاء الله وتوفيقه أكثر مما ينال الأول، والقسم الثالث فعل ما فعله القسم الثاني فإذا أضاف إلى ذلك حسن التوكل على الله سبحانه كان عطاء الله له أسمى وأجل وأعظم.﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾(٢)، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾(٣) فاتخاذ الأسباب الصحيحة يؤدي بالضرورة إلى النتائج المقدرة لتلك الأسباب، واتخاذ الأسباب الصحيحة مع الالتزام بشرع الله سبحانه يؤدي بالضرورة إلى نتائج أفضل،واتخاذ الأسباب الصحيحة مع الالتزام بشرع الله وصدق التوكل عليه يؤدي حتما إلى النتائج الأفضل، وهذا الذي يجب أن يكون من العاملين في الحقل الإسلامي، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٤).

---

(١) الشورى الآية ٢٠ .
(٢) ال عمران الآية ١٤٥ .
(٣) الشورى الآية ٢٠ .
(٤) الأعراف الآية ٩٦.

إن معادلة النصر في الإسلام واضحة كل الوضوح؛ فالله سبحانه قد أقام الحياة على سنن تكوينية واجتماعية ثابتة، وما يقع فيها من تغييرات إنما يتم وفق الأنظمة والأسباب المبثوثة في الكون والحياة ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾[1].

والمؤمن بالله حق الإيمان يكون حيوي الفطرة صادق الإدراك مرهف الإحساس لحقائق الوجود يتمتع بقوة معنوية متدفقة تدفعه لطاعة الله وحسن التوكل عليه، يتجه بكل ما يملك من قدرات فكرية وإمكانات مادية نحو الإصلاح والبناء بعيدا عن كل صور الفساد والفتن وعن جميع أشكال الفوضى والارتجال والتهور ولذلك يكون الأحق بنيل نصر الله وتأييده والفوز ببركات السماء والأرض.

ولعله من المفيد أن نضرب بعض الأمثلة لنجعل هذه المسألة أكثر وضوحا للقارئ.

١- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾[2]، فالآية دلت على وعد الله لعباده المرسلين بالنصر ووعده لجنده بالغلبة، ثم بينت بعض ما يجب أن يتخذوه من أسباب فأكدت الإعراض عن الكافرين والمكذبين، و عدم الغفلة ووجوب الحذر والمراقبة لهم

(١) الإسراء الآية ٧٧.
(٢) الصافات الآية ١٧١- ١٧٥.

ببصر لا يفارق تحركاتهم مما يوحي بصرامة إلى وجوب جمع جميع ما يستطاع من معلومات حول العدو، وبديهي أن هذا من أهم الأسباب المفيدة في ترشيد التخطيط والتنفيذ فالمثل العربي يقول " قتلت أرض جاهلها وقتل أرضا عالمها ".

٢- قال تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ**﴾[1]، فالآية أمرت بإعداد المستطاع من القوة القادرة على تحقيق جملة من الأهداف أهمها أن تكون قادرة على تأمين الصف الإسلامي من كل أنواع الصد والافتتان، وعلى إرهاب أعداء الدين فلا يفكروا في العدوان عليه أو الوقوف في وجهه ووجه الحاملين له العاملين من أجله، وأن تكون قادرة على تحقيق أهداف الإسلام المختلفة في التحرير والإصلاح والبناء، وفي كل هذا دلالة على وجوب اتخاذ كل أنواع القوة المستطاعة التي منها توفير المال اللازم وإيجاد الرجال الأكفاء بالقدر المناسب للنجاح في إدارة الصراع واتخاذ المخططات الفكرية والإدارية والتعليمية والاقتصادية والاجتماعية والإعلامية وغيرها من المخططات التي تحتاج إليها حركة التنفيذ، وتتطلبها عمليات التدافع والصراع بين القوى المختلفة، كما تشمل أيضا ذكر الله تعالى والالتجاء إليه والتضرع له والتزام ما أمر به وترك ما نهى عنه.

---

(١) الأنفال الآية ٦٠.

٣- قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1].

فالآية أمرت بعدم تقريب المنافقين والخونة ومن ليس صادقا في إيمانه وولائه من مصادر القرار، وعدم اطلاعهم على الأسرار بأن لا تلجؤوا إليهم للاستشارة ولا تتخذوهم خبراء ولا تكشفوا أسراركم إليهم لأنهم ليسوا صادقين معكم، وسيفسدون عليكم أمركم ويحبطون مخططاتكم ويهدمون أعمالكم، وسيستغلون قربهم منكم ومواقعهم بينكم للكيد لكم وتنفيذ مخططات أعدائكم، ولا شك أن حسن تنفيذ هذا التكليف والتوجيه الرباني يحتاج إلى اتخاذ الأسباب التي تكشف المنافقين وتميزهم عن غيرهم والتي منها المراقبة والاختبار ورصد جميع التحركات والأفعال خاصة في أوقات الغفلة وخارج أماكن العمل، حتى لا يبقى في دوائر صناعة القرار إلا أهل الثقة والنصرة من المؤمنين الأكفاء.

٤- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلا

(١) آل عمران الآية ١١٨ .

تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[1].

فالآية أجمعت عوامل النصر فأمرت بالثبات عند لقاء العدو والإكثار من ذكر الله تعالى والطاعة لله والرسول، وتجنب الشقاق والنزاع، والصبر على تكاليف الصراع والمعركة، والحذر من البطر والبغي والرياء.

وتوفير مثل هذه العوامل يتطلب إعدادا سابقا على مستوى التعليم والتدريب وعلى مستوى التخطيط والتنظيم وكل هذا من الأسباب التي يجب أن تتخذ ليتحقق النصر بإذن الله.

إن القرآن حافل بمثل هذه الأمثلة التي تجعل المؤمن لو تدبرها وأحسن الالتزام بها أكثر الناس واقعية وأحرص الناس على توفير الأسباب التي يحقق الله له بها أهدافه المختلفة، فكم من جهد بذل في الدعوة إلى الله دون جدوى وكم من هزيمة لحقت العاملين في الحقل الإسلامي وكم من معارك خسرها المسلمون بسبب ضعف إعداد القوة التي يتطلبها الصراع وتحتاجها المعركة، أو بسبب العجلة في لقاء العدو والاستعجال في الوصول إلى الهدف والغفلة عن حقيقة ما يملك الطرف الآخر من وسائل وإمكانيات ومن برامج ومخططات، أو بسبب الثقة في أهل النفاق والغفلة عن

(١) الأنفال الآية ٤٥-٤٧.

البحث عن صدق الإيمان وولاء المقربين للسياسات المتبناة والمواقف المتخذة والقيادات القائمة، أو بسبب البخل على الدعوة بالمال والتقليل من ذكر الله والدخول في صراعات ونزاعات داخلية لأتفه الأسباب، أو بسبب ضعف الصبر على الشدائد وعدم الحذر من البطر والرياء والبغي.

إن الراصد لمسيرة الحركات الإسلامية لا يلبث كثيرا ليدرك أن ما لحقهم من هزائم ومصائب كانت دائما بسبب المعاصي التي تكون أحيانا في شكل تقصير في اتخاذ الأسباب الكونية والاجتماعية وأحيانا أخرى في شكل تقصير في الالتزام بالأحكام الشرعية.

يقول الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني " لله في كونه سنن ذات أحكام صارمة تنفد بقضاء الله وقدره وهي لا ترحم أحدا لا صغيرا لا يجد حيلة ولا كبيرا عاجزا ولا جاهلا ولا غافلا ولا مجتهدا مخطئا.

ولله في شريعته أحكام تكليفية لابتلاء إرادات المكلفين فهم يفعلونها أو يتركونها باختيارهم الحر، فمن أطاعها أصاب خيرا، ونال من الله أجرا عظيما، ومن عصاها أصاب شرا واستحق من الله عقابه جزاء وفاقا"[1].

والمسلم المؤمن العاقل يتقيد بسنن الله في كونه فلا يعدوها، ويطيع أحكام الله في شريعته فلا يعصيها، ويتوكل مع ذلك على

(١) بصائر للمسلم المعاصر: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: ص١٤٩-١٨٤.

الله في تحقيق ما يرجو من نتائج يحبها في الحياة الدنيا، ويكون على يقين تام بأن الله سيضاعف له ثواب الآخرة أضعافا كثيرة وبأنه سيصيب حتما هذا الثواب العظيم لأن الله عز وجل لا يخلف الميعاد.

وعلينا أن نلاحظ بأن التقيد بسنن الله عز وجل في كونه وعدم معاندتها إنما هو طاعة لله في أحكامه التكوينية التي لا تعاند، وتعليق للرجاء فيما جعل الله فيه رجاء، واتباع للأمور من طرقها الطبيعية التي جعلها الله لها، وتوسل إلى مطالب الحياة بوسائلها الطبيعية وأسبابها ودخول إلى البيوت من أبوابها.

أما التقيد بشريعة الله وعدم تعدي حدودها فهو طاعة لله في أحكامه التشريعية التكليفية التي جعل الله فعلها أو تركها داخلا ضمن دائرة مسؤولية الاختيار الحر للمكلف.

ثم يأتي التوكل على الله تعبيرا عن صحة الإيمان بأن سنن الله التكوينية هي من خلقه وخاضعة لحكمه وسلطانه وهو سبحانه إن شاء خرقها لحكمة هو يقدرها ويقضيها، ولكن الأصل ثباتها وعدم خرقها، ويأتي التوكل على الله تعبيرا أيضا عن صحة الإيمان بأن أحكامه التكليفية التشريعية فريضة لا يعفي منها إلا العجز عنها.

يقول شيخ الإسلام: "ومن المعلوم بما أرانا الله من آياته في الآفاق وأنفسنا وبما شهد به في كتابه أن المعاصي سبب المصائب فسيئات المعاصي والجزاء من سيئات الأعمال، وأن الطاعة سبب

النعمة، فإحسان العمل سبب لإحسان الله؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾[١] وقال تعالى ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[٢]، وقال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[٣]، وقال ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٤]، وقال ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾[٥]، وقال ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ﴾[٦] وقال تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[٧].

وما عقاب الله سبحانه للأمم السابقة كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين وقوم فرعون إلا بسبب سيئاتهم ومعاصيهم ولهذا قال مؤمن آل فرعون ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ ۝٣٠ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾[٨].

---

(١) الشورى الآية ٣٠ .
(٢) النساء الآية ٧٩.
(٣) آل عمران الآية ١٥٥ .
(٤) آل عمران الآية ١٦٥.
(٥) الشورى الآية٣٤ .
(٦) الشورى الآية ٤٨.
(٧) الأنفال الآية ٣٣ .
(٨) غافر الآية ٣٠-٣١.

إن الإنسان في نظر الإسلام هو المسؤول عن أفعاله كلها سواء كانت هذه الأفعال متعلقة بسنن الله في الخلق والاجتماع أو في الكون والحياة أو كانت متعلقة بالتكاليف الشرعية، وسواء كانت متعلقة بالواجبات الفردية تجاه نفسه أو غيره من الناس أو كانت متعلقة بالواجبات الجماعية، ففي كل هذه الحالات يكون مسؤولا أمام الله سبحانه في الآخرة ثم أمام ضميره وأمام الناس في الدنيا، قال تعالى ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾(١)، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾(٢)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٣)، ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾(٤)، ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٥)، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾(٦).

وقال الرسول ﷺ «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته فالإمام الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده**

(١) الزلزلة الآية ٧-٨ .
(٢) المدثر الآية ٣٨.
(٣) الأنفال الآية: ٢٧ .
(٤) الجاثية الآية: ٢٢.
(٥) التوبة الآية: ١٠٥ .
(٦) آل عمران الآية: ٣٠.

وهي مسؤولة عنهم وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسؤول عنه ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[١].

إن هذه المسألة بالغة الأهمية وإدراكها يعصم المؤمنين من الوقوع في أخطاء التقصير وعدم المبالاة والتهور فما أصابنا من ويلات ومحن، وما لحقنا من هزائم وخسائر وما حل بنا من فتن واضطرابات إنما كان بسبب المعاصي والأخطاء، فيجب أن ندرك ذلك ونتداركه، فمن استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه، أما أن يصر الكثير على عدم الاعتراف بذلك أو التخفيف والتهوين منه، وإلقاء المسؤولية على عاتق مكر النظام وبطشه أو على كيد الخصوم وبغيهم، أو اعتبار ذلك قدرا محتوما لم يكن للبشر دخل فيه فإن ذلك هروب من المسؤولية لا يبرئ ذمة ولا يسقط واجبا ولا يفيد في تصحيح الواقع وكسب رهان المستقبل.

لا شك أن النظام يمكر ويكيد ويبطش ويغدر، وأن الخصوم يخدعون وينافقون ويخونون وأنهم جميعا مسؤولون عن أفعالهم تلك أمام الله في الآخرة وأمام الأمة في الدنيا، ولكن كل ذلك لا يضر لو أن الحركات الإسلامية عرفت كيف تحصن نفسها وبناءها، وكيف تتعامل مع الواقع وتوظفه لصالحها وكيف تعد الإمكانيات والخطط والبرامج وتحدد الوسائل المتكافئة مع المراحل والأهداف، أي عموما عرفت كيف تتدرج بنفسها إعدادا وتنظيما

(١) رواه البخاري.

وبعملها تخطيطا وتنفيذا ثم ثباتا على المبادئ واعتصاما بحبل الله سبحانه؛ قال تعالى: ﴿**إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ**﴾[1].

إن التاريخ يشهد أنه ما تماسك المسلمون واستمسكوا بحبل الله سبحانه وضحوا بأموالهم وأنفسهم وثبتوا على مبادئهم وأتقنوا الأخذ بالأسباب وطبقوا شرع الله عليهم في حياتهم وسائر علاقاتهم إلا عزوا وانتصروا ووقاهم الله شر أعدائهم، وما شك المسلمون في بعضهم بعضا وبخلوا على دعوته بالمال والنفس والجهد، وسعوا فيما بينهم بالغيبة والنميمة والشقاق، ووثقوا بأعدائهم أو خصومهم الفكريين، وتنازلوا عن مبادئهم كسبا لود أعدائهم أو خصومهم، أو اتقاء شرهم إلا كتب الله عليهم الهزيمة ومكن لأعدائهم فيهم.

*****

(١) آل عمران الآية: ١٢٠.

الخاتمة

هذه جملة من آراء أهل الفقه والمعرفة والاختصاص حول هذا الموضوع الجلل، وفقه المسائل المتعلقة به واجب حتى لا يقع المؤمن في فتنة التكفير والتفسيق والتفسيق، والحكم على الناس بالردة دون أن تتوافر شروط ذلك، وحتى لا يقع الانحراف بالدعوة من البناء إلى الهدم، وبالأمة من التأييد والدعم إلى الاستنكار والرفض، وحتى لا يستنزف وقت الدعاة في التعليق على التهارج والتنديد بالعنف ومحاولة التقليل من أذى السلطات، وترك الاهتمام بالتعليم والتوجيه والتربية، وتأليف القلوب وجمع الصفوف وإعداد الأمة لتحمل رسالة البلاغ ومسؤولية التمكين للدين وحفظ أحكامه وقواعده وتقوية وطنه وإعزاز أحوال أتباعه، وخاصة في مثل هذا الزمن الذي عطل فيه العمل بشرع الله سبحانه وأعطي حق التشريع إنشاءً وابتداءً، وحق التحريم والتحليل والأمر والنهي لجهات ومؤسسات تمارسه دون قيد ولا شرط إلا ما توهمته هي مصلحة، وأصبح العمل لأجل الوطنية والقومية والحزبية والعشائرية والفئوية مقدما على العمل لوجه الله سبحانه ثم مصلحة المسلمين، وكثر الجحود لنعم الله سبحانه وعدم الاعتراف بفضله على خلقه وأخذ الاعتماد والتوكل على غير الله طابع الاعتقاد، وظهرت كراهية الإسلام والاستهزاء به أو ببعض

أجزائه وأحكامه وبمن يلتزمون بذلك ويدعون إليه، وكثر تحليل وتحريم بعض ما أحل أو حرم بنصوص قطعية في الدلالة، وطغت نزعة حب الدنيا وجعلها الهدف الأول والأساس وأحيانا الوحيد عند أكثرية الناس، وكثر الفرح برؤى الكفار في التشريع والتنظيم والتسيير وتقليدهم في ذلك.

لقد صارت كل هذه المظاهر سياسة قائمة تحميها أحكام وقوانين، وتتبناها مؤسسات وأحزاب وحكومات، ويسهر الإعلام على نشرها ومؤسسات الدولة على حماية من يفعل ذلك ويدعو إليه.

ولا شك أن كل هذا من مظاهر البعد عن الله ورسوله ﷺ ومن نواقض الشهادتين، ومما يفرض ترتيب البطلان عن كل تلك الأفعال والاعتقادات، وأن العمل على تغيير هذا الوضع وتصحيحه من أقدس الواجبات الملقاة على عاتق الأمة اليوم، إلا أن تغييره بالقوة وإن توافر شرط الكفر البواح الذي هو شرط وجوب على حد تعبير السادة المالكية في تقسيم الشروط؛ إلى شروط وجوب وشروط صحة، كدخول وقت الصلاة الذي هو شرط لوجوب الصلاة، والوضوء الذي هو شرط صحتها، فلو صلى إنسان بعد دخول الوقت دون استيفاء شرط صحته يكون عمله باطلا، وعبادته ردًّا عليه وهو آثم في ذلك، كذلك الحال بالنسبة للقول بالتغيير بالقوة، اعتمادا على توافر الكفر البواح وهو العدوان على شرع الله سبحانه بالتعطيل أو التحريف أو المصادرة، دون توافر شروط

صحة استعمال القوة، ولذلك فإن العمل على تغيير الوضع القائم بالقوة منهج لا يصح، ووسيلة في الدعوة لا تتبنى، وعمل ليس وراءه فائدة، فقد دلت كل التجارب على فشل التغيير بهذه الوسيلة، وكان السبب في ذلك هو عدم توافر عوامل صحة استعمال القوة من استنفاد الوسائل السلمية، واحترام درجات الإنكار وشروطه، وتوافر القدرة بأنواعها المختلفة، وشيوع العلم بشرعيته لدى الأمة وتفاعلها الإيجابي معه، ووضوح أهدافه عند الجميع، وصدور القرار به من أهل الحل والعقد، فالعبرة ليست في توافر شروط وجوب الجهاد فحسب، ولكن في توافر شروط صحته كذلك؛ فقد يكون الفعل واجبا ولكنه لا يصح، ولعل في تجربة الإخوان في سوريا في بداية الثمانينيات، وتجربة فصائل من الجبهة الإسلامية للإنقاذ في الجزائر منذ ١٩٩٢م إلى اليوم التي خلفت كما هو معلوم أكثر من ١٠٠ ألف قتيل وعشرات الآلاف بين سجين وشريد ومفصول عن العمل، ومئات المؤسسات والمساجد مدمرة، وقادت إلى سيطرة أهل الفساد من العلمانيين على أهم مرافق الدولة، وظهور الشماتة بالمسلمين، وصدود كثير من الناس عن دين الله، ما فتن البعض الآخر فجعلته يرفض العمل الإسلامي بوسائل العمل السياسي وغيره من الوسائل التي ظهرت في مسيرة الحركة الإسلامية، ويجتهد في معارضته وتبديع أهله وتنفير الناس من حولهم، وجعلت البعض الآخر يقف ضد العمل الإسلامي ويتصوره نوعا من الإرهاب أو من مقدماته، واستنزفت جهود الدعاة إلى الله

سبحانه في استنكار ما يحدث والتنديد بالعنف، ومحاولة التخفيف من المضار والمحافظة على وجود الإطار الرسمي للعمل الإسلامي بغض النظر عن طبيعة التنازلات المقدمة إلى نظام الحكم، وورثت الكثير من صور وأشكال الخلاف بين العاملين في الحقل الإسلامي؛ فهذا يتهم بالعمالة للسلطة، وذاك بالتشدد (والراديكالية)، وذلك بالانزواء على الذات وترك واجب الدعوة والتعليم والتربية، ونمت العصبيات القبلية؛ فهذا شاوي وذاك قبائلي وذلك عربي ورابع تارقي وخامس مزابي، وهؤلاء مجموعة الشرق وأولئك مجموعة الغرب... إلخ.

وفتحت الباب أمام السلطة لتقنن سياسة الاستئصال والإقصاء، وترسم الديمقراطية المظهرية وترتمي في أحضان صندوق النقد الدولي، وتدعو لإدراج العنف في الجزائر في إطار الإرهاب العالمي ومعاملة أصحابه ومؤيديه والذين يوفرون له الغطاء السياسي على ذلك الأساس، وتجتهد في تحضير الجزائر - إيديولوجيا واقتصاديا وسياسيا وعسكريا- للدخول إلى حظيرة العولمة، وتعمل على تحضير الشعب للقبول بالتطبيع مع دولة الكيان الصهيوني إلى غير ذلك من الآثار البالغة السوء على كافة المستويات.....

لعل في كل ذلك ما يزهد في هذه الوسيلة ويدعو إلى البحث عن منهج آخر يتوافر فيه نوع من الهدوء والاستقرار، ويجد فيه

الدعاة إلى الله نوعا من الحرية والأمن، وتستطيع به الأمة أن تقوم بواجبها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإشاعة الحسنات وتشجيعها وإماتة السيئات والتقليل منها، ويمكنها في النهاية أن تصل إلى أداء واجبها في الرقابة على السلطة ومحاسبتها وعزلها عند الاقتضاء.

أسأل الله تعالى أن يتقبل مني هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن يتجاوز عني لكل ما يكون قد ند به القلم من خطأ في التعليل والاستدلال والتحليل، ويبقى هذا الموضوع في حاجة إلى مزيد من الدراسة والبحث والتحليل، لأن الحاجة إلى فقه المسائل المتعلقة بموضوع منهج القوة في التغيير تظل قائمة ما دام يوجد في هذه الدنيا عدوان على الدين بالتعطيل والتحريف والمصادرة، وعدوان على حقوق الأمة بالاستبداد والاستغلال والاحتكار.

وأضع قلمي لأتجه إلى الله سبحانه بالدعاء الضارع أن يتقبل مني الجهد المتواضع مخلصا ابتغاء مرضاته ورجاء رحمته وغفرانه.

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل

الشيخ

عبدالله جاب الله

قائمة المصادر والمراجع

- تفسير الجصاص
- تفسير المنار- محمد رشيد رضا
- أحكام القرآن لابن عربي
- تفسير القاسمي: محاسن التأويل
- في ظلال القرآن لسيد قطب.
- العلوم والحكم للقرطبي.
- المنتقى
- سيرة ابن هشام
- البداية و النهاية
- فتح القدير ابن عبد البر
- شرح البخاري العيني
- شرح مسلم
- الصحيح الجامع الصغير
- رد المختار على الدر المختار ابن عابدين
- تحفة الأحوذي على الترمذي
- الأشباه والنظائر للسيوطي.
- الحلية لسفيان الثوري.
- الآداب الشرعية لابن مفلح.
- الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي
- شرح الكبير

- مغني المحتاج
- المقدمة ابن خلدون
- مقدمة ابن رشد مع المدونة
- نيل الأوطار الشوكاني
- الأموال
- حاشية العدوى:الخرشي.
- المهذب
- الأم -الشافعي
- الروضة
- المحلى ابن حزم
- أحكام أهل الذمة: ابن القيم
- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان - ابن القيم.
- مدارج السالكين - ابن القيم.
- المدونة
- اختلاف الفقهاء: الطبري
- الخراج يحي بن آدم.
- تاريخ الطبري.
- فتوح البلدان
- سبل السلام
- المبسوط للسرخسي
- الخراج لأبي يوسف
- كنز العمال من مسند الإمام أحمد
- نصب الراية للزيلعي

- الموافقات للشاطبي.
- نهج البلاغة لابن أبي الحديد
- زاد المعاد لابن القيم
- الطرق الحكمية - ابن القيم
- الفروق: القرافي. طبعة الحلبي
- رسائل ابن عابدين
- الأحكام السلطانية: أبو يعلى.
- فتح القدير، حاشية ابن عابدين.
- الشفاء للقاضي عياض
- الحطاب.
- القوانين الفقهية.
- شرح النيل.
- العين شرح البخاري.
- الروض النضير.
- شرح الموطأ الزرقاني.
- البحر الزخار
- شرح السير/ الكبير
- مخطوط الحاوي الكبير للماوردي
- الإحكام في أصول الأحكام للآمدي
- إعلام الموقعين - ابن القيم الجوزية
- جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي
- إحياء علوم الدين - أبو حامد الغزالي
- المستصفى- أبو حامد الغزالي الطبعة اليمنية.
- المعتمد -أبو يعلى.

■ الاعتصام- الشاطبي.
■ الأحكام السلطانية للماوردي.
■ قواعد الأحكام في مصالح الأنام: العز بن عبد السلام
■ الفقه الإسلامي- وهبة الزحيلي.
■ أصول الفقه وهبة الزحيلي.
■ السياسة الشرعية: عبد الوهاب خلاف
■ شرعية العمل السياسي - عبد الله جاب الله.
■ مجموعة الوثائق السياسية - محمد حميد الله.
■ بصائر للمسلم المعاصر: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني
■ مبدأ المشروعية وضوابط خضوع الدولة للقانون في الفقه الإسلامي فؤاد النادي
■ المشروعية الإسلامية العليا علي جريشة.
■ التشريع الجنائي - عبد القادر عودة.
■ أزمة الحرية السياسية في الوطن العربي صالح حسن سميع-.
■ موسوعة سماحة الإسلام - محمد الصادق عرجون.
■ منهاج الإسلام في الحكم محمد أسد.
■ الدعوة إلى الإسلام- أرنولد.
■ أثار الحرب -وهبة الزحيلي.
■ الجهاد في الإسلام -محمد سعيد رمضان البوطي
■ المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية- طارق البشري
■ المسلمون والأقباط يوسف القرضاوي.
■ خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم- فتحي الدريني
■ القانون الدولي العام د/ حامد سلطان
■ القاموس السياسي: أحمد عطية الله
■ دستور ١٩٩٧-الجزائري.